

الفصل الأول ...

الأدب العربي قبل عصر النهضة
"تاريخ وملامح"



obeikandi.com



حال الأدب العربى

قبل عصر النهضة الحديثة

١- الفتح العثمانى لمصر وأثره فى البلاد ^(١) .

ظلت مصر ما يقرب من ثلاثة قرين من الزمان ترزح تحت نير الحكم المملوكى (٦٤٨ هـ - ٩٢٢ هـ) وكانت حالها تنتقل من سىء الى أسوأ فى النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ثم أطبقت عليها الظلمات بدخولها تحت الحكم العثمانى ، وباتت تتعثر خطاها فى هذا الليل الموحش المظلم ما يقرب من ثلاثة قرين أخرى .

وكانت لياليها ظلاماً دامساً ، الى أن بدأت أشعة فجر خافقة باهتة تسرى فى لياليها ، مع قدوم الحملة الفرنسية ، ثم أخذت هذه الأشعة تسطع وتتسع حتى غمرت أشعة شمس مشرقة فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم بلغ نهارها غايتها ، وتوهجت شمسها بعد ثورة ١٩١٩ م .

انتصرت جيوش السلطان "سليم العثمانى" على جيوش المماليك فى موقعة "مرج دابق" بالقرب من حلب سنة ١٥١٦ م ، وفى سنة ١٥١٧ م الموافق ٩٢٣ هـ اجتاز السلطان "سليم" صحراء سيناء ، ودخل مصر ، وقضى على دولة المماليك ، ثم استولى العثمانيون على البلاد العربية : العراق ، والشام ، وإيبيا ، وتونس ، والحجاز .

وقد كان السلطان العثمانى يتمتع فى حكم هذه البلاد بسلطات لا حد لها ، وكان الولاة أيضاً مُطلقى التصرف ، ومع أن مصر فقدت استقلالها ، وصارت ولاية تابعة للدولة العثمانية ، فقد قبضت على زمام الأمور فيها يد عاتية جائرة ، وكذا

^١ - يبدأ العصر العثمانى من عام ٩٢٣ هـ وينتهى عام ١٢١٣ هـ .

الحال فى سائر البلاد العربية ، وبتنازل آخر الخلفاء العباسيين الذى كان يقيم فى مصر للسلطان "سليم العثماني" عن الخلافة ، أصبح العثمانيون خلفاء على البلاد الإسلامية ، ووجبت لهم الطاعة بحق هذه الخلافة الشرعية، وسواء كان ما يرى من تنازل الخليفة العباسى عن الخلافة حقيقة أو أسطورة اختلقها الساسة العثمانيون فالنتيجة واحدة ، وهى أن الناس اعتقدوا فى الخلافة العثمانية، وشعروا بأن لها واجباً مقدساً فى أعناقهم ، فقوى ذلك من نفوذ العثمانيين، وجعل حكم البلاد العربية لهم سهلاً وميسوراً ، وقد كانت إحدى مواد القانون الأساسى للدولة العثمانية :

أن حضرة السلطان مقدس ، وغير مسئول .

وقد ترتب على ذلك الظلم والطغيان ، أن خضعت الشعوب العربية لهم هذه القرن الطويلة تبكى حظها ، وتندب أيامها ، وقد سادت الفوضى فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وساءت حالة الشعوب الاقتصادية . بصفة خاصة . الى أبعد الحدود، فقد نشأ فيها نظام الالتزام ، وخلاصته : أن تبيع الدولة لرجل من رجالها ما يقدر على إدارته من جميع النواحي ، وكان يسمى "الملتزم" ويدفع للدولة ضريبة ما يقوم عليه من الأرض مقدماً ، ثم يحصل من أصحاب الأرض ما يُرضى طمعه وجشعه من الضرائب ، لا يمنعه عن ذلك قانون أو ضمير ، وكان له حق الاستيلاء على الأرض التى يموت مالکها ولا وارث له كما كان له حق نزع أى أرض من مالک وإعطائها لملك آخر ، إذا لم يستطع مالکها ما أوجبه عليه من الضرائب .

ثم كان نظام السُّخْرة مع ظهور نظام "الوَسَايا" فقد كان السلطان يمنح الرجل من أتباعه مساحات واسعة من الأرض يملكها ، ويتصرف فيها كما يشاء ، وكان يفرض على الفلاحين القيام عليها وخدمتها دون مقابل .

وكانت هناك مظالم أخرى كثيرة، كانت تصيب الناس بالرعب والفرع ،
منها : "نزلة الكشاف" الذى يحل بالمدن والقرى ، فيحصل منه ومن أتباعه وعسكره ،
أضرار ، من نهب متاع الناس ، وإيذائهم ، وتكليفهم ما لا يطيقون فى المآكل
والمشارب .

وقد أشار الى ذلك بعض شعراء العامية حين قال ،
ومن نزلة الكشاف شابت عوارضي

وصار لقلبي لوعةٌ ووجيفٌ

وقد سادت أمثال شعبية بين الناس فى هذه الفترة ، تجسّد هذه المظالم ،
وتصور هذا الظلم ، منها : "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم" وكان من
أشد الأيام على الفلاحين ذلك اليوم الذى يطلبهم فيه الملتزم ليعاونوه فى زرع
أرضه ، أو فى ضم الزرع ، وحفر القنى وكانوا يسمون ذلك (يوم العونة) وهى كما
كانوا يقولون : داهية كبرى على الفلاحين .

ولذا قال عبد الرحمن الجبرتي بعد أن أنتهى من الكلام فى هذا المقام :

" نحمد الله الذى أراحنا من الفلاحة، فهى - على كل حال - بلية أعاذنا الله
والمحبين منها "

أما النواحي السياسية والاجتماعية، فكانت فى كل البلاد التى يحكمها
العثمانيون على أسوأ ما عرف فى تاريخ البلاد العربية .

٢ - تاثر اللغة العربية باللغة التركية :

من الأمور الخطيرة فى سياسة الاستعمار: أن يلجأ إلى فرض لغته على
الشعوب التى يحكمها ؛ لأنهم بذلك يضعفون صلة الشعب بلغته ، وبقوميته ،

ويميلون به الى لغتهم ، يتعلمها ، ويتذوق أدبها ، ويهجر لغته ؛ لأنها لا توصله الى ما ينشده من مأرب فى التقرب الى الحكام ، وتولى وظائف الدولة .

وهذا ما فعله الأتراك حين حكموا الشعوب ، فقد جعلوا التركية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وكان من شروطهم فيمن يتولى أعمال الدولة: أن يكون على معرفة باللغة التركية التى هى اللغة الرسمية و'دوا' على ذلك ، فسلموا اللغة العربية الرأفد التى كانت تمدّها ، فأغلقوا المدارس واستولوا على الأوقاف التى كانت محبوسة عليها .

ولم يبق فى هذا الظلام غير شعاع نور ينبثق من الجامع الأزهر .
ومما لاشك فيه ، أنه كان من نتيجة هذه السياسة: أن دخلت كثير من الألفاظ والتركيب التركية ساحة اللغة العربية من أوسع الأبواب ، فقد كان العامل والموظف والفلاح والجندي يسمعون كلمات تركية فى كل لحظة ، وقد تضطروهم حياتهم المعيشية الى استعمالها .

ولقد بقيت كثير من هذه الألفاظ والتركيب على ألسنة المصريين ، وفى ديارهم الى وقت قريب ، بل إن بعضها لا يزال جارياً على الألسنة حتى يومنا هذا ، ومن ذلك الكلمات: عرضحال ، وكلمة برنجى بمعنى الأول ، وكلمة مخزنجى ، وغيرها من الكلمات التى تنتهى بالمقطع (جى) مثل بوسطجى ، وعرنجى ، وقهوجى ، ومكوجى ، وكذلك الكلمات التى تنتهى بالمقطع (خانة) ، مثل: أجزخانة ، وكتبخانة ، وغيرها .

وقد كان من ذلك . أيضاً - أن بعض كتابنا أيضاً كان يُضمّن كتاباته تعبيرات تركية ، نجد أمثلة من ذلك فيما كان يكتبه محررو "الوقائع المصرية" فى سنواتها الأولى .



ومما يذكر أن هذه الصحيفة كانت تحرر في أول صدورها باللغة التركية ،
ثم حُرِّت بالتركية والعربية ، وأخيراً اقتصر تحريرها على اللغة العربية .

٢ - انحطاط الأدب العربى فى عهد العثمانيين وأسبابه :

رغم ما ذكرناه من قبل ، إلا أنه فى العصر المملوكى كانت لا تزال هناك
بوادٍ من الذوق العربى تجرى فى أوصال الأدب ، وعلى الرغم مما لجأ إليه كُتَّاب
الممالك وشعراؤهم من العناية بالصناعة اللفظية ، كانت فى الشعر والنثر بقايا من
الروح الأدبية التى يجد فيها القارئ بعض المتعة .

فلما جاء العصر العثمانى أخذ الأدب يلفظ أنفاسه الأخيرة ، إلا بقايا من
دماء الروح كانت تتردد فى جسم الأدب العربى فى فترات متباعدة .

أما فى الشعر : فقد استعجمت الألسنة والأفكار والمشاعر ، ونظم الشعراء
بالعامية وعجزوا عن الأخيلة البديعية الخلاصة ، والمعانى اللطيفة ، والألفاظ العذبة
والعبارات الرصينة وقد حلت محل كل ذلك : ضحالة فى التفكير ، وجهامة فى
التصوير ، وركاكة فى التعبير ، وزد وجه المحسنات البديعية دمامة ، وزدها ثقلاً ،
وظهر نوع جديد زده الشعر تخلفاً وضعفاً ، ذلك هو " التأريخ بالشعر " فقد كان
همّ كثير من شعراء هذا العصر أن يوثّقوا فى نظم بيت ، أو شطر بيت من الشعر
يتضمن تاريخاً معيناً ، بحيث لو حسبت حرفه بحساب (الجُمْل) أنتجت التاريخ
الذى يراد ، وكان التاريخ السائد عندهم : التاريخ الهجرى .

وتكمن خطورة هذا النوع فى : أنه يجعل الناظم مشغولاً بجمع الحروف
والكلمات والتأليف بينها ، دون أى اعتداد بما يصير به الشعر شعراً .

وأما النثر : فقد نضبت منه القرائح ، وعجز الكُتَّاب عن مجارة كُتَّاب
العصر المملوكى ، رغم عجزه وفقره ، هو الآخر ، فقد اختفت الأساليب القوية



الرصينة ، ولولا بعض ما يجده صاحب الذوق من رقة وعذوبة أحياناً فى بعض ما كتبه الشهاب الخفاجى^(١) وهو من علماء هذا العصر وأدبائه ، وما نجده من وضوح وقوة فيما يكتبه عبد اللطيف البغدادى^(٢) .

وهو - أيضاً - من علماء هذا العصر وأدبائه • ولولا ما كتبه هذان العالمان الأديبان ، وكتبه قليل غيرهما مما يشبههما لقلنا : إن العصر العثمانى لم يتنفس عن كاتب تستريح النفس الى سماع أدبه •

وقد كان من أسباب تخلف الكتابة وانحطاطها فى هذا العصر : ميل الكتاب الى الكتابة بالعامية ، فقد كتبت بها الرسائل ، والكتب الأدبية ، كما كتبت بها بعض الكتب العلمية ، ومن عجب : أن السجع كان مُلتزماً أيضاً فيما كتب باللغة العامية •

وكان من مظاهر هذا التخلف : أنه لم يُكتب ولم يُخطب فى موضوعات ذات أهمية ، فلم يكن يشغل الكاتب أو الخطيب من الموضوعات الجادة ما يقف عنده الناقد معجباً •

*** وما يذكر :**

أن الخلاعة والمجون فى أدب ذلك العصر قد ظهرت بوضوح ، ولعل السر فى ذلك يرجع الى : أن الناس كانوا فى حاجة الى هذا النوع ؛ لينفسوا عن أنفسهم ما يجدونه من قسوة الحياة •

^١ - شهاب الدين الخفاجى المصرى ، كان قاضى العسكر فى مصر ، وله رسائل وشعر ومؤلفات جيدة ، ومنها : شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل ، وقد توفى سنة ١٠٩٦ هـ •
^٢ - نشأ عبد اللطيف البغدادى ببغداد ، ودرس بدمشق ، وتردد على القاهرة كثيراً ومات فيها ١٠٩٣ هـ وله كتاب مشهور يسمى " خزانة الأدب ولباب لسان العرب " وهو كتاب جليل ، شرح فيه شواهد " الكافية " وهى زهاء ألف بيت ، وترجم لأصحاب الشواهد ، وضمنه كثيراً من أخبار الأدب والتاريخ •

وقد جاء فى مقدمة بعض الكتب . التى أُلِّفَتْ فى ذلك العصر ، وتضمنت هذا النوع من الأدب . تعليلاً لهذا الاتجاه ، إذ يقول المؤلف :

"لأن النفوس متشوقة الى شىء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم ، وزماننا هذا لا يعيش فيه إلا من كان عنده طرف من التمسخر والخلاعة"^(١) وبما يثير الدهشة ، ويدعو الى الاستغراب حقاً ، أن يكون هذا الكلام صادراً من عالم من علماء الأزهر فى ذلك العهد ، وهو أمر يدل على مدى التحلل الأخلاقى والاستهانة بالأداب العامة ، والوصول الى درجة من الإسفاف والانفلات .

* أسباب انحطاط الأدب :

تعددت الأسباب التى أدت الى انحطاط الأدب فى هذا العصر ، وكان منها :

* خلو مصر فى تلك الفترة من الثروة العلمية والأبية التى تتمثل فى الكتب وفى المثقفين .

والتى كانت ميراثاً من العصر المملوكى ، وذلك أن العثمانيين أرادوا أن يجعلوا عاصمة الخلافة إحدى مدن الدنيا ، فنقلوا إليها كثيراً مما كانت تفخر به مصر ، ومن ذلك العلماء والأدباء ، ونفائس كتب العلم والأدب ، وفى مثل هذا الجو لا ينبغ عالم ، ولا يبرز أديب ، إلا إذا جاء واحد منهما فلتة من فلتات هذا العصر .

* عبث العثمانيين بالمدارس ، مما أدى الى زيادة الجذب فى حقول الثقافة .

* يضاف الى ذلك من أسباب : تعطيل ديوان الإنشاء الذى كانت له آثار بعيدة المدى فى ازدهار الأدب أيام الأيوبيين والمماليك .

^١ - من كتاب : " هز التحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف " ليوسف الشربيني ، من علماء ووعاظ هذا العصر .

* فقدان الأدب من يرعاه ، والأدب إنما ينمو ويزدهر فى ظل حكام محبين له ، مشجعين لأهله ، مقرّنين لهم ، ولم يظفر الأدب بأى رعاية من سلاطين آل عثمان ولا من المماليك الذين كانوا ضلالاً لهم فى إدارة شئون البلاد ، وقديماً قال الشاعر :

قالوا تركت الشعرَ قلتُ ضرورةً

بابُ الدواعى والدوافع مُغلقٌ

خلتِ البلادُ فلا جوادٌ يُرتجى

منه النوال ، ولا مليحٌ يُعشَقُ

* ولعل من أهم الأسباب التى تذكر فى هذا المقام : تلك الحياة الصعبة التى كان الشعب المصرى يعيش فيها، فقد عانى من شظف العيش ، وضاق بالظلم والطغيان، ومعلوم أن الأديب إنما ينشط ، وينتج فكراً وأدباً ، حين تتوفر له لقمة العيش ، والحياة الكريمة ، ويشعر بقسط كبير من الحرية .

٤. نموذجان من الأدب فى العصر العثمانى :

فى هذه الأجواء التى يخيم عليها الظلام، لم تسكت ألسنة الأدباء ، وإنما عبرت عن الحالة السيئة فى البلاد بقدر الإمكان ، وبأسلوب هزلى ساخر . وقد جاء تعبيرهم عن ذلك متكلفاً، ضيق الفكرة، محدود النظر، يسير على هدى السابقين ، يقلدهم ويجول فى إطارهم .

* ومن شعراء هذا العصر :

الشيخ حسن البدرى ^(١) الذى يقول ساخراً من بعض علماء عصره الذين قدموا الدنيا على الدين ^(١) :

^١ - شاعر وناقد مصرى أزهرى ، عاش فى هذه الفترة ، وتوفى سنة ١١٢٧ هـ .

عن علماء عصرك لا تسألن

فإن أحوالهم ظاهرة

نفعك من جانبهم منتفٍ

فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة

قومٌ إذا لاح لهم مَطْمَعٌ

تسارعوا كالأكلب العاقرة

والعمل الصالح ما بينهم

همتهم عن فعله فاترة

فالشاعر هنا. يتوجه بنقده وسخريته الى علماء عصره ، الذين ساءت

أحوالهم ، وفسدت دواخلهم ، فأصبح التماس النفع منهم فى أمور الدنيا والآخرة
أمراً يصعب الحصول عليه .

ويسخر الشاعر . كذلك . من تصارعهم على مطامع الدنيا ، كتصارع الكلاب

على الجيفة المنتنة بينما يقل عندهم العزم والمطمع فى الأعمال الصالحة .

وقد اعتمد الشاعر فى سخريته . هنا . على أسلوب المقارنة ، حيث قارن

بين حال هؤلاء العلماء تجاه المطامع ، وبين حالهم تجاه العمل الصالح ، ويبيّن أنهم
يسرعون الى الأول ، ويتقاعسون عن الثانى .

وبذلك استطاع هذا الشاعر ، أن يحوّل مظاهر الشقاء والحرمان فى حياته

الى هزل ودعابة ، وإن لم تكن سخريته . هنا - عميقة بدرجة عمق الجرح الذى
أصيبت به مصر فى تلك الفترة ، وإنما جاءت سطحية تشبه سطحية النفوس التى
عاشت فى تلك الفترة .

^١ - تاريخ الجبرتي ، ج ١ / ٨٢ ، طبعة مطبعة حسين حسنى بك ، القاهرة ١٢٩٧هـ

* ومن النماذج الشرية:

تلك الرسالة التي توجه بها "الشهاب الخفاجي" إلى صديق له يُدعى "عبد الوهاب المحلى" يقول له فيها :

"مولاي يشتكى من الدهر وهو أبو العِبر ، وفى المثل : من سَابَقَ الدهر عَثَرَ ، فانتظر عَقَبَ الزمان عليك ^(١) ، وَكِلَ الى الله من أساء إليك ، فإن الدهر دُول ، وإن الله جنوداً من عسل ^(٢) . ٠٠٠ فأوقد مصباح فكرك إن أظلم الدجا ، واصبر فإن الصبر يفوح منه أَرْجُ الرَّجَا ^(٣) ، وإن جَفَتْ قريش فقله أنصار ، وإن نَبَتْ بك دار فقله ديار ، وإن كان انتظار الفَرْج عبادةً ، فإن أوقات الضيق كلها سعادة ٠٠ وقرب الأشرار أعظم مصائب الأحرار "

فهذان النموذجان ليسا بالعمق والفكر المطلوب ، وإن كانا . فى نفس الوقت . قد عبّرَا عن رِيح العصر ، ولما كان يشغل حياة الناس من أغراض غير مهمة ، وانشغال غير قليل بالصنعة البديعية ، والزخرف اللفظى ، الذى يثقل كاهل الكلمات دون أن تتمخض عن معنى ذى أهمية .

^١ - عُتِبَ الزمان : جمع عُتْبَةٍ ، وهى النوبة والبدل .
^٢ - معناها أن الله - سبحانه - قد يهلك الإنسان بما يظن أن فيه لنته وشقاءه .
^٣ - الأرج : الرائحة الطيبة .